من هنا وهناك

الأستاذ طه الراوى

صنعة الرواية

يحار المتصدى لسيرة فقيد الأدب السيد طه الراوى أى الجوانب يتناول وأيها يذر ؛ فان نواحيه متعددة الجوانب ، ومزاياه فياضة بالفضائل ذاخرة بالجلائل ، وحياته حافلة بالامجاد من الأعمال والعظائم من الأمور ، يحسن بأبناء الجيل احتذاؤها والاهتداء بنبراسها ؛ فهى بمجموعها أقباس من المكرمات وأنفاس من الصالحات وأمثلة حية تحفز النشء على مكابدة المشاق فى سبيل التحصيل ومتابعة الدرس والصبر على معاناته . فطالما حفزت سير العصاميين ودفعت بالكثيرين من ذوى النفوس الخاملة إلى أن ينفضوا عنهم غبار الكسل فيعملوا بياض أيامهم وسواد لياليهم حتى ينالوا مبتغاهم . ومن أجل هذا عنى الأقدمون بكتب السير ولا سيما تراجم العصاميين منهم ؛ فهى خليقة أن تدرس وأن تحتذى . كان رحمه الله يمتاز بخلال كريمة يقدور المتحدث أن يقصر بحثه على خلة منها فهى كفيلة أن تغنيه من أن يتصدى لخلال أخرى ، وسوف تشبع رغبته الفنية ما واتته موهبته الكتابية . أقول يقدور الكاتب أن يتحدث عنه مؤلفاً ضليعاً أو كاتباً اجتماعياً أو عالماً غزير المادة واسع الاطلاع حجة فيما يرجح ، ولغوياً يذكرنا بالسلف الصالح من أمثال الخليل بن احمد الفراهيدى وابن الأعرابى ، أو مفسراً يحاكى الرازى وصاحب الكشاف ، كل هذه الجوانب التى إذا امتاز امرؤ بواحدة منها فهو خليق أن يعد بها من عظماء الرجال ، فكيف وقد تفوق أستاذنا بها جميعاً ؟

برع الراحل الفقيد بالفنون اللسانية والعلوم الاسلامية حتى عد من فطاحل علماء عصره غير المنازع . وكنت أسمع من شيوخ زمانه أثناء الحرب الكونية الاولى بأنه قد أكمل علوم الجادة وأصبح علماً بها لدرجة لم يبق بين أساتذة عصره آنذاك من يفتقر إلى الأخذ عنه ، ولم تخرج المطبعة العربية كتاباً قيماً فى مصر أو الهند أو العراق والشام إلا وقد اشتملت عليه مكتبته العامرة ، فكانت تسعفه بما يحتاج إليه من بحث . أما أخلاقه فقد صفيت من كل عيب ، فليس له شانئ أو قال ولا عدو لا فى السر ولا فى العلانية ، فذهب مبكيا عليه من جميع عارفيه . هذه النواحى الخصبة من سيرته قد تصدى للكتابة عنها كتاب كثيرون فى العراق وغير العراق ؛ لأن المعجبين بأدبه لاحصر لهم وكلهم من ذوى الزكانة والفضل ؛ ولذلك فانى قصرت بحثى على صفة فذة انفرد بها من بين أقرانه وله فيها فضل السبق على جميع أبناء المدرسة القديمة والحديثة فى بغداد ، تلك الصفة هى الرواية فالشهرة التى عرف بها المرحوم كانت منطبقة على الحقيقة وواقع الحال . ونحن إذ نعت المرحوم بالراوى فلسنا نقصد مبنى الكلمة من وجهة نسبتها إلى مسقط رأسه ، وانما نريد معناها الاصطلاحى اللغوى . إن الذين حصلوا على المعارف واتسعت آفاق معلوماتهم كثيرون ، ولكن ندر بينهم

من كانت له براعة فقيدنا بالرواية أوله قدرته على عرضها وإفادة الناس بما حصل من دراسات منظمة أو قراءات عابرة . سل أى طالب جلس إليه وهو يلقى درسه من منبره يخبرك خبرا اليقين كيف كان يحقق بحثه ويفصل موضوعه ويدعمه بالشواهد ويؤيده بالأمثلة ، ويحدثك عن مقدار ماغرس فى نفوس تلامذته من فائدة وبث فيهم من ميل إلى الدراسة والآداب، وكيف أنهم كانوا ينصرفون من درسه ونفوسهم مفعمة بالغبطة والرضا منشرحة لما يقتطفون من فوائد علمية وأدبية . ولست أرانى مبالغاً إذا قلت بأن تذوق الأدب وشيوع دراسته فى ربوعنا كان مصدره الفقيد الراوى إما بالذات وإما بالواسطة . وأصدقاؤه الذين كانوا يسمرون فى نديه العامر فى أمسيات السبت ـ حياها الله وأحياها ـ يقدرون طول باع أستاذنا وتفوقه فى هذه الخصلة ؛ فهو محدث بارع يأخذ بمجامع القلوب ويأسر الألباب ، ويبعث فى طلابه ورواد ندوته ماشاء الله من أريحية ومسرة، ويمتع أذواقهم ويرهف شعورهم ، فقد كانوا ينهلون من نميره العذب ويغرفون من فيض معارفه الزاخرة ، فمن طرفة أدبية إلى ملحة مستظرفة ، ومن فكاهة مستعذبة إلى كلمة شاردة ، ومن أمثال سائرة إلى أبيات من الشعر هى السحر الحلال . إسمع إليه يروى منخل الشعر ومصفى النثر ومهذب الأخبار تعرف بين برديه الأصمعى أو حماد أو ابن قتيبة وأضرابهم ممن حفظت لنا بطون الأسفار سيرهم ونوهت لنا بنبوغهم فى الرواية وسعة الدراية . نعم للمغفور له فى عنق أبناء هذا الجيل دين أى دين فى توجيههم الأدبى؛ فهو والحق أقول الذى غرس فى نفوسنا الميل إلى آداب اللغة وتذوق المصطفى من نثرها والمصفى من شعرها ؛ فما كان أرواه وأكثر حفظه للعذب من منظوم اللغة ومنثورها . هو الذى عرف أبناء هذا الجيل ببشار والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء والشريف الرضى وابن معتوق ، وهو الذى حبب الى الكثيرين دراسة زهير والنابغة وطرفة بن العبد وامرئ القيس . وهو الذى وجه طلاب الآداب إلى دراسة الجاحظ وعمرو بن مسعدة ، وهرون بن سهل، وابن رشيق ، وابن خلدون ، وابن بسام ، وابن حيان . لقد أوتى غفر الله له حافظة واعية وذاكرة مواتية . فاذا أفاض فى حديث تلقاه يحسن الاستشهاد بالحكاية المؤيدة ، والمثل المناسب والحكاية المشابهة . وذاكرته من أعجب العجائب تواتيه بالشواهد ، وحافظته قلما خانته فى رواية ما استوعبته من روائع الشعر أو بدائع النثر ، فكأنه كان يغرف من بحر ، او كأن كتابا مسطوراً يقرؤه .

كان نادرة من نوادر الدهر ، وتحفة من تحفه التى قلما يجود بها، براعة لسن ، واتقاد ذهن ، وسرعة بديهة ، واتساع معارف ورجاحة مدارك ؛ فهو الأديب على غرار ما عرضه ابن خلدون . تصفو النفس لمجالسته ويشيع فيها المرح لحديثه . وأما حضور بديهته فى ايراد المثل من مأثور الآداب منظوما ومنثوراً فهو ما لا يتفق لأحد من أقرانه ولا يشق له غبار فى هذا المضمار . ومجلسه والاستماع لما يروى فى شتى العلوم وضروب الآداب فكان متاعاً دونه متع الحياة ولذائذها ، ولا سيما الساعة الأولى التى كنا نقضيها فى مكتبته العامرة أنا والصديق المحزون على فقده الأستاذ مصطفى على الذى كان الفقيد يعزه ويؤثره على سائر أصحابه ويستأنس برأيه ، وكثيراً ما كان يكلفه قراءة فصل من ديوان أو كتاب إلى أن يتقاطر علينا رواده الكثيرون ، وهم يختلفون ذوقاً وسناً ومدارك ، فنضطر إلى ترك مجلسنا والانقطاع عما كنا فيه من نشوة ممتعة ننسى فيها هموم الحياة وأتعابها .

كان الراوى رحمه الله مسرفاً فى القراءة إن صح أن فى القراءة إسرافا ؟ فما زرناه مرة إلا وجدناه يقرأ أو يسمع لمن يقرأ له . وهذه نتيجة طبيعية لنشأته العصامية الأولى ؛ فقد نشأ عصاميا بما حصل من العلم والآداب . ومن زامله فى الدراسة أو عاشره فى صباه يوم كان يأخذ العلم عرف شدة ماكان يحمل نفسه من تعب وما كان به يرهقها من عناء مما لا يطيقه إلا العصاميون الأفذاذ .

وخصلة ثانية جديرة بالتنويه عرف بها الراوى ، هى سعة اطلاعه ، فما خاض سماره فى حديث إلا شارك فيه بل أفاض فى موضوعه وأفاد السامعين بتعليقاته ، وفطن إلى دقائق فى الموضوع حتى يبلغ غاية المدى . وأجود ما كنت تسمع منه الآداب العربية والعلوم الاسلامية وخاصة تعليقاته فى التفسير . أما اطلاعه على التاريخ العربى بفروعه كلها جاهلية أو إسلامية ، أموية أو عباسية أندلسية أو الخانية ، فكان فيها حجة وترجيحه عليه المعول . وليس بين شيوخ الأدب وعلماء العربية فى العراق قاطبة من يدانيه فى الضبط . فاللحن تفشى عند الخاصة بله العامة . وعلة ذلك عدم الركون إلى التحقيق وإجهاد النفس بمراجعة المعاجم ، فنلفظ الكلمة كيفما اتفق دون أن نكلف أنفسنا الأخذ عن القاموس أو ضبطها من المعاجم ، ومرجعنا السماع الملوط . وقد كان من أمانى الأستاذ المرحوم فرض رقيب يشق به على الاذاعة تعرض عليه خطب المتحدثين عن منبرها ، واعراب صعاب الكلمات بالشكل ، وتنبيههم إلى الأخطاء الشائعة ؛ لأن جمهور السامعين يحسبون صحة كل ما يلق ، وهنا البلوى ، فيشيع التقليد ويكثر الخطأ ، ويساء إلى العربية عن طريق الجهات التى تقصد خدمتها . وكم كان رحمه الله يغتم لالقاء بعض أولئك المتفاصحين الذين يكلفون بتقليد الممثلين المصريين ، وفاتهم أن البون شاسع بين حوار الممثلين وقراءة المواضيع أدبية أو علمية ، فتراهم يمطون بالحرف وحقه القصر مثلا ، ويقفون على ما لا يصح الوقوف عليه كاسم الموصول قبل الاتيان بصلته ، أو على الموصوف قبل إكمال صفته ، وكم سمعنا خطباء يقفون على حرف الجر وأكثر ما كان يسوءه أولئك الذين يتقعرون ويتفيقهون بنطق الكلمات فيزدردون الحروف بحيث لا يتضح حرف عن آخر . وكم نعى على الاذاعة إهمالها هذه الناحية أو فسحها المجال لبعض الناشئين ممن لا يتوافر فيهم النضوج ؛ لأنه يعدها أخلق أداة وأنفع وسيلة لتهذيب الجماهير .

وبعد فخسارتنا بفقد الراحل لا تعوض ، وفراغه لايسد . أجزل الله لنا الأجر ، وألهم آله وذويه الصبر وتغمده بعفوه ورضاه .

جمال الأُلوسى

التحليل النفسى والأحلام

استرعى نظرى عنوان « حلم ليلة من ليالى الصيف » . وما قرأته إلا اعتقاداً منى بأنى قد أجد فيه شيئاً من التسلية أو أعثر فيه على مدة أعالج فيها شيئاً مما أعرفه عن تأويل الأحلام . فاذا بى أجد فيه صورة ناطقة حية سريعة الحركة تفيض بكل ألوان الفن للأستاذ عبدالرحمن صدقى . وإذا بى أجد فيه مع هذا كله إحياء لذكرى زوجته المحبوبة بصورة لم تسبق له ولا لغيره من قبل . فقد سبق له أن خلد ذكرى حبه لزوجته بقطعه

الفنية ومنظوماته الشعرية الملتهبة الفياضة .

وللأحلام فى نظر المشتغلين بالتحليل النفسى تأويلات كل مايسوغ الأخذ بها أنها ساعدتنا فعلا فى كشف مجاهل الحياة العقلية اللاشعورية كشفا أدى إلى نتائج قاطعة فى شفاء الحالات العقلية وفى تفسير كثير من الظواهر الانسانية .

وفى حلم عبد الرحمن : مرآة ، وكسوة جديدة أعجبه منظرها ، ثم زوجته ، ثم خوف من الجنون . وفى الحلم موكب عرس بالشموع وسيدة محتشمة، أشاحت بوجهها مجفلة مما رأت .

ويقال إن للأحلام عادة ما يسمى محتوياتها الظاهرة وهى أول وصف الحلم ، وله كذلك محتوياته الباطنة . ومما يوضح هذا أنى كنت نائما فى حجرتى بالجلترا وكان المطر شديداً جداً ، فكانت قطراته الكبيرة تضرب زجاج النافذة من الخارج ضربا سريعا متواليا ، فكان أن رأيت نفسى فى ساحة القتال أسير فى أحد الخنادق وصوت المدفع الرشاش «المتريوز» خارج الخندق مستمر لا ينقطع . وكان قاع الخندق من الطين المبلول ، وكنت عارى القدمين أغوص بهما فى هذا الطين . وكان كما يرى القارئ حلما مزعجا قمت منه منزعجا حقا ، فأدركت أن صوت الرصاص تأويل نفسى حسى لصوت قطرات المطر ، وأدركت أن إحساس الغوص فى الطين تأويل نفسى حسى لاحساس العرق فى أرجلى إذ لبست فى تلك الليلة جوربا سميكا من الصوف كانت قد صنعته لى صاحبة المنزل الذى كنت أسكن فيه .

فلو أنى أخذت الحلم بالصورة التى سردتها مع ربط أهم عناصره بأهم عناصر المؤثرات الحسية المحيطة فى لحظة وقوع الحلم لبدا ذلك كافيا . ولكن ما العلة فى أن صوت قطرات الماء تحول إلى صوت طلقات الرصاص ولم يتحول إلى صوت موسيقى للرقص ، وكان فيه من حسن الايقاع وجماله ما يكفى لذلك ؟ العلة فى هذا أن لدى خوفا من العذاب لذنوب اقترفتها فى صغرى . فهناك الاحساس اللاشعورى بالذنوب ، والاحساس اللاشعورى بالتهديد بالعذاب .

ولعل حلما آخر يوضح ما أقصد ، وهو حلم لشاب على درجة بالغة من الذكاء والتعمق فى التفكير الفلسفى . قرأ فى الفلسفة وفى الالهيات وفكر فيهما كثيراً جداً . وفى يوم من الأيام أبلغنى أنه رأى فى الحلم ربه يجلس على عرش كبير ويمر عليه المؤمنون فيعطيهم شراباً أبيض اللون حلو المذاق يتقبلونه باسمين شاكرين ، ثم يمر عليه غير المؤمنين فيقذفهم بسائل ملتهب أحمر اللون يؤلمهم ويشويهم . ثم يقول لهم إنه عفا عنهم أجمعين .

وقد نظن لأول وهلة أن الحلم كما ذكرناه يفسر نفسه . ولكن الشاب قص حلمه وانتهى منه ثم استرخى فى جلسة وتأوه تأوها عميقا ثم قال : «ولم لايكون الوالد مثل هذا الاله ؟»

وكان للشاب والد يقابل خطأ ابنه مقابلة قاسية ، فهو لا يعذر ولا يغفر ولا يرحم . وللشاب مع والده قصة طويلة تمتد بنا إلى طفولته الأولى ، وفى القصة نجد مزيجا من الاعجاب والسخط والحب والكراهية .

ويمكننا أن نذهب فى الحلم إلى أبعد من هذا فى كشف المحتويات الباطنة . فللسائل الأبيض رمزيته وللسائل الأحمر رمزيته . . . وهكذا .

وإذا أردت أن أتوغل فى حلم عبد الرحمن فلا بد من أن أتوغل فى حياته ، وفى طفولته ، وفى ظروفه الحالية . . . إلى غير ذلك . ولكن يمكننى مع ذلك أن أتفق معه فى تأويله الذى نشره ، على أن السيدة المحترمة المحتشمة هى والدته التى يطمئن إليها ، ويسكن إلى حنانها ، وقد سكن إليه منذ ولادته . فالعقل انما ابتدعها فى الحلم لحماية النائم من حالة عقلية حادة شاذة . فبظهورها وصراختها اختفى الموكب واختفى الحلم كله . ولكن يلاحظ أنها

صرخت كأنها لا توافق على هذا الذى كان على وشك الحدوث ، وكان من مقدماته الموكب والسترة الجديدة . ففى الحلم فى رأيى رغبة ملحة فى اللاشعور للعودة إلى الحياة الزوجية . ولكن يمزق العقل أزاءها أمران كلاهما على جانب كبير من الأهمية : أحدهما أن زوجة عبد الرحمن ما زالت حية فى نفسه ، فهو إما أن يعيش معها وهذا محال ، وإما أن يعيش مع غيرها وهذا محال قطعا . والأمر الثانى ما لأم عبد الرحمن من مكانة قوية فى نفسه بلغت من إنها درجة لا يحتمل مع عيشها معه أى حل آخر ، خصوصاً وقد ضمته إلى صدرها وأعادته إليها عند ما أدبرت عنه الزوجية الهنيئة .

هذا ما يفسر فى رأيى ما بالحلم من خوف وانزعاج واضطراب . فالعودة إلى زوجة يعتقد الحالم أنها ماتت لا يكفى لظهور هذه الانفعالات العنيفة .

هذا تفسير قد لا يقبله عقل الحالم لأول وهلة ؛ إذ قد يتناول مكنونات اللاشعور . وهذه المكنونات لا سبيل للبلوغ إليها بالعقل الواعى ، عقل المنطق والحياة اليومية .

والله أعلم .

عبد العزيز القوصى